

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ
فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 33]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

ما ينتظر
المعاندين من
أهل الكفر، هو
الموت أو هلاك
الاستئصال

لما مضت سورة النحل في طرح الدليل تلو الدليل على صدق الألوهية ونفي الشرك، وصدق الرسول ﷺ والقرآن، ثم أظهرت موقف الكفار من هذه الدلائل الواضحة، وأنه لم يكن إلا كموقف من ينكر الشمس في ضحاها، فبالغوا في شركهم وتكذيبهم، وأنكروا النبوة، ووصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين، ولم يعترفوا بأي تقصير لهم حتى عندما عاينوا الوفاة، بل ظنوا أن أسلوب المراوغة والإنكار الذي ذابوا عليه في الدنيا يمكن أن يستدعى وأن يجدي نفعاً مع ملائكة الموت حال نزع أرواحهم، عندما عنفتهم الملائكة على سوء أعمالهم، فأنكروا أنهم فعلوا أي سوء في حياتهم؛ فما كان بعد ذلك إلا أن "ذكر الله تعالى أنواع التهديد والوعيد لهم، ثم أتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خيراً وصدقاً وصواباً، ثم عاد إلى بيان أن أولئك الكفار لا ينزجرون عن الكفر بسبب البيّنات التي ذكرت، بل كانوا لا ينزجرون عن تلك الأقوال الباطلة إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد وأتاهم أمر ربك وهو عذاب الاستئصال"⁽¹⁾؛ لأنّ دأبهم في هذا دأب المكذّبين من قبلهم، وكان السجّية التي كانت في أسلافهم من المكذّبين قد ورثوها عنهم وزادوا عليها، وفي بيان هذا كله وبيان جزائهم جاءت هذه الآية الكريمة: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 203 / 20.

❁ شرح المفردات:

(1) ﴿يَنْظُرُونَ﴾: أصل الإنظار: تأمل الشيء ومعاينته، ثم يستعار ويُتَّسَع فيه، فيقال: نظرت إلى الشيء أنظر إليه، إذا عاينته، ويقولون: نظرتُه، أي انتظرتُه، وسُمِّيَ الإمهال إنظاراً؛ لأنه ينظر إلى الوقت الذي يأتي فيه⁽¹⁾، وضده: التَّعْجِيلُ، ويأتي الإنظار بمعنى: التأخير والتأجيل⁽²⁾، والاستنظار: طلب الإنظار، واستنظر المشتري فلاناً: سألَه الإنظار، والتتنظر: توقع الشيء⁽³⁾، والمقصود بالإنظار في الآية: الانتظار، وهو النظرة، والمراد منه: الإعراض والإبطاء⁽⁴⁾.

(2) ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾: أصل: (أمر): ضد النهي، ومنه قولك: افعل كذا. يقال: لي عليك أمرٌ مطاعة، أي: لي عليك أن أمرك مرة واحدة فتطيعني، قال الكسائي: إنه لأمرٌ بالمعروف ونهي عن المنكر، من قوم أمرٍ، والأمر: المجازاة والعقاب، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [التحد: 1]، قال الزجاج: أمر الله ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم من أصناف العذاب⁽⁵⁾، ومن هذا الباب الإمرة والإمارة، وصاحبها أمير ومؤمر⁽⁶⁾، والمقصود بـ ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ في الآية: الهلاك وعذاب الاستئصال.

❁ المعنى الإجمالي:

يقول الله تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون - المتقاعسون عن الإيمان بالرُّسل فيما أنزل إليهم ربهم - إلا أن تأتيهم الملائكة لِقْبُضِ أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم، أو يأتي أمر الله بحشرهم

امتناع المشركين
عن الإيمان
أوجب عليهم
العذاب

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19 / 14.

(3) ابن عتاد، المحيط في اللغة: (نظر).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14 / 146.

(5) الزجاج، معاني القرآن: 3 / 189، والزبيدي، تاج العروس: (أمر).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فَعَلَ أَسْلَافُهُمُ الْكَفْرَةَ ذَلِكَ
أَيْضًا، فَأَصْرَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَتَمَادَوْا فِي شَرِكِهِمْ إِلَى أَنْ هَلَكُوا،
وَمَا ظَلَمَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ،
وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ، وَلَكِنْ كَانُوا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي،
وَمُخَالَفَةِ الرُّسُلِ، فَاسْتَحَقُّوا عَذَابَ اللَّهِ⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

بلغة الاستئناف البياني:

بلغة الجملة
المفصولة؛
لكونها جواباً عن
سؤال مقدّر

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ
رَبِّكَ﴾، استئناف بياني ناشئ عن جملة ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾
[النحل: 26]؛ لأنها تثير سؤال مَنْ يسأل عن إبان حلول العذاب على
هؤلاء، كما حلّ بالذين من قبلهم، فقيل: ما ينظرون إلا أحد أمرين
هما: مجيء الملائكة لقبض أرواحهم فيحق عليهم الوعيد المتقدم،
أو أن يأتي أمر الله، أي: هلاك الاستئصال المعرض بالتهديد به في
قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: 26]⁽²⁾.

بلغة الاستفهام بالحرف ﴿هَلْ﴾:

إعراضهم وتأخر
توبتهم، فعل
منكر مستهجن

اختلف في الاستفهام هنا فقيل: معناه الإنكار أو النفي⁽³⁾ وتوجيه
المعنى: أينظرون؟ على الإنكار، أو: ما ينتظرون ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ
الْمَلَائِكَةُ﴾ على النفي، وجزم ابن عاشور بأنه: إنكاري في معنى
النفي، ولذلك جاء بعده الاستثناء⁽⁴⁾.

سرّ العدول عن التعبير بالانتظار إلى التعبير بالإنظار:

ما وعد الله
آتٍ متيقن
الحصول، لا
ريب فيه

معنى ﴿يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون؛ لأن (نظر) متى كانت من رؤية

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14 / 214، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10 / 102، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4 / 569.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14 / 145.

(3) الطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2 / 190.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14 / 145.

العين؛ فإنما تعديها العرب بـ (إلى)، ومتى لم تتعد بها فهو بمعنى
انتظر، كما قال امرؤ القيس:
فإنكما إن تنظراني ساعة *** من الدهر تنفعني لدى أم جندب
ومنه قوله تعالى حكاية: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: 13]⁽¹⁾
أي: انتظرونا.

وعُدل عن التعبير بالانتظار إلى التعبير بـ ﴿يَنْظُرُونَ﴾؛ لأنه لبيان
أن ما هُددوا به آتٍ لا محالة، فكأنهم ينظرون إليه نظر العين⁽²⁾،
وذلك لتيقنهم حصوله ووقوعه.

بلاغة الاستعارة التهكمية في ﴿يَنْظُرُونَ﴾:

في قوله ﴿يَنْظُرُونَ﴾ استعارة تهكمية؛ لأنهم لا ينظرون فعلاً،
فالمراد به تهديدهم ووعيدهم، فشبه بقاؤهم حتى يحلّ بهم ما
هدّدهم الله به لا محالة، بنظر من حُسّ لحتفه وهلاكه⁽³⁾، بجامع
تحقق وقوع الهلاك في كل.

شبه بقاءهم
حتى يحلّ بهم
ما وعدوا به،
بنظر من حُسّ
لهلاكه

براعة توكيد الشيء، بما يشبه ضده:

من أنواع التأكيد ما يعرف بتأكيد الشيء بما يشبه ضده، ومنه
تأكيد الذم بما يشبه المدح والعكس، وقد يكون قريباً من ذلك ما
جاء في هذه الآية في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَايِكَةُ أَوْ
يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ لأن الشيء المنتظر هو ما يترقبه المرء من خير قادم
لكنه هنا واحد من أمرين كلاهما عظيم مخوف، قال ابن عاشور
معلقاً على ما في هذه الآية: "وهذا قريب من تأكيد الشيء بما يشبه
ضده وما هو بذلك"⁽⁴⁾.

يترقب
المستكبرون
أمرين، كلاهما
عظيم مخوف

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 3/ 191.

(2) الطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 190.

(3) الطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 190.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 145.

بلادة الكناية في جملة الاستثناء بـ ﴿إِلَّا﴾:

وفي قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾، كنايتان: الأولى: في قوله ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وفيه كناية عن قبض أرواحهم؛ لأنَّ الملائكة إنما تنزل لأجل ذلك، والثانية: في قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ فهو كناية عن هلاك الاستئصال⁽¹⁾، أو عن قيام الساعة⁽²⁾ التي فيها حسابهم.

سرّ التعبير بالمصدر المؤوّل، دون الصّريح:

قوله تعالى: ﴿أَنْ﴾ هنا هي المصدرية، وأوثر التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ دون الصّريح؛ للدّلالة على تجدد ترقّب الإتيان من قبلهم وتكرّره، وكأنّ هذا التّرقّب أمر حاضر معهم لا يفارقهم، وفيه أنّ التّعبير بالمصدر المنسبك ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ دليل العناية بفعل مجيء الملائكة أو أمر ربّهم دون الالتفات إلى كيفة هذا المجيء وهيأته.

إيثار فعل الإتيان:

أوثر التّعبير بالإتيان دون المجيء في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ لما يدل عليه لفظ الإتيان من معنى المجيء بسهولة، أما لفظ المجيء فإنّ التّعبير به ليس خاصاً بهذه الدلالة الخاصة بلفظ الإتيان، فهو أعم⁽³⁾، ولأنه ليس بمستعظم على الله تعالى أن يجعل لهم أحدهما أو كليهما، كان التّعبير الأثير هو التّعبير بالإتيان، فكلُّ على الله تعالى هيّن.

توجيه قراءتي: ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾، و﴿يَأْتِيَهُمْ﴾:

قرأ الجمهور ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ حمزة والكسائي ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾ بالياء، وهي قراءة خلف ويحيى بن وثاب وطلحة والأعمش،

(1) الطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 190 / 2.

(2) ابن عطية، للحرر الوجيز: 391 / 3، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 102 / 10.

(3) الرّاغب، المفردات: (أتى - جاء).

كنّي عن قبض
أرواحهم،
وهلاك
استئصالهم،
ويوم حسابهم

ترقّب الإتيان،
متجدّد عندهم،
دون النّظر إلى
كيفية

الإتيان هو
المجيء بسهولة،
وكلّ شيء على
الله تعالى هيّن

التأنيث في
لفظ (الملائكة)
مجازي، فيجوز
تأنيث الفعل
وتذكيره

ومعنى الكلام أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ظالمى أنفسهم⁽¹⁾ وليس من فرق كبير بين قراءتي «تَأْتِيَهُمْ» و(يَأْتِيَهُمْ)؛ لأن التأنيث في لفظ «الْمَلَائِكَةُ» وهو الفاعل هو تأنيث مجازي، فيجوز تأنيث الفعل وتذكيره.

سرُّ إسناد الإتيان للملائكة مجموعين:

أسند الإتيان للملائكة مجموعين؛ لأنَّ المراد بهم ملائكة التَّوْفِي الذين مضى ذكرهم، والسَّر في ذكره بصيغة الجمع - مع أنَّ ملك الموت الذي يتوقَّى الأنفس بإذن الله تعالى واحد - تفخيمه، وتعظيم شأنه⁽²⁾، لعظيم شأن الموت.

وجه تعريف الملائكة:

(أل) في كلمة «الْمَلَائِكَةُ» للعهد، والمعهود هم ملائكة التَّوْفِي المذكورون في قوله تعالى: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ» وهو ملك الموت المُعَبَّر عنه بالجمع لتعظيم شأنه بحسب ما مرَّ ذكره.

دلالة حرف التَّخْيِير «أَوْ»:

يدل حرف التَّخْيِير «أَوْ» في قوله: «أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ» على امتناع الخلو من كلا الأمرين، أي: بأن يقع أحدهما، ولا يخلو الأمر منهما، وفي منعها للجمع بينهما خلاف⁽³⁾.

نكتة تعريف الأمر بالإضافة إلى لفظ الرب:

عرَّف الأمر بالإضافة إلى اسم (الرَّب) فقال: «أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ» للتخصيص، فليس المراد أن يحل بهم أي أمر، وإنما أمر جلل يعينه ويخصَّصه بالإضافة إلى اسم (الرَّب) كأن يكون هلاك استئصال، أو قيام الساعة.

ملك الموت
معظم الشأن

المقصود بالملائكة
ملك الموت

حرف التَّخْيِير
(أو) دالٌّ على
امتناع الخلو من
كلا الأمرين

الإضافة
لتخصيص ما
يحلُّ بهم من
أمر جلل

(1) ابن الجزي، النشر في القراءات العشر: 2/ 303، وابن عطية، للحرر الوجيز: 3/ 391.

(2) محمَّد عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/ 185.

(3) الشَّهاب، حاشية الشَّهاب: 5/ 328، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 267.

إيثار لفظ (الرَّبُّ):

إهلاك الله
الظَّالِمِينَ، نعمة
على عباده
الصَّالِحِينَ

إيثار اسم الربِّ ومقام ذكره هو مقام الإنعام؛ لأنَّ إهلاك الله الظَّالِمِينَ بالاستئصال نعمة على عباد الله تستحقُّ الشكر، كما قال سبحانه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [45].

عود ضمير الخطاب في لفظ ﴿رَبِّكَ﴾:

ضمير الخطاب
مراد به النَّبِيُّ
ﷺ تَلَطُّفًا به

ضمير الخطاب مراد به النَّبِيُّ ﷺ وفي "التعرُّض لوصفِ الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ، إشعارٌ بأنَّ إتيانه لطفٌ به ﷺ، وإن كان عذابًا عليهم" (1).

سر الفصل في جملة ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ﴾:

سرُّ السُّؤال
شناعة الفعل
وهول العقاب

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، لما كان هذا الذي ذكرته الآية وما يترتب عليه من عقاب أمرًا مفزعًا، كان موجبًا لمن له فهم أن يقول: هل فعل هذا أحد غير هؤلاء؟ فقل: نعم! ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا الفعل البعيد لبشاعته عن مناهج العقلاء، مكرًا في تدبير الأذى، فعل الذين من قبلهم (2).

بلاغة التشبيه في السياق الحكيم:

التشبيه
بالبعيد،
للتَّهْدِيدِ والوعيد

في قوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، أي: مثل فعلهم من الكفر والتكذيب ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فكذبوا الرسل، وأشركوا بالله، وجملة التشبيه هذه مسوقة لتعليل التَّهْدِيدِ والوعيد الذي سبقها في الآية (3).

فائدة التَّعبير باسم الإشارة (ذلك):

بينهم وبين
الحقِّ بونٍ
شاسعٍ

عَبَّرَ باسم الإشارة (ذلك) المختصَّ بالإشارة للبعد في قوله:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 111/5.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 150/11.

(3) الطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 190/2.

﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، للدلالة على أن بينهم وبين الحق بوناً واسعاً جداً.

وجه التعبير عن فعلهم بالماضي:

في إثارة التعبير بالفعل الماضي ﴿فَعَلَ﴾ دلالة على تحقق وقوع التكذيب ممن سبقهم من المكذبين كما وقع منهم، فضلاً عن كون الحديث عن ماضي الزمن.

فعل التكذيب
متحقق عند من
سبق

إثارة لفظ ﴿فَعَلَ﴾ دون (عمل):

أوثر التعبير بـ ﴿فَعَلَ﴾ دون (عمل) في قوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لأن العمل هو ما يكون عن قصد وإدراك، بخلاف الفعل، فقد يكون بغير قصد، ولذلك فإن ما ينسب إلى الحيوانات هو فعل وليس عملاً⁽¹⁾، ولعله هنا قد أراد بالتعبير بالفعل، تنزيلهم منزلة من لا يعي، ولا يعقل ما يفعل، فكان كالحيوان الذي يأتي الأفعال وهو لا يعيها، أو يعقلها؛ لأنهم لو كانوا يعون ما يفعلون ما أشركوا ولا كذبوا المرسلين، فلما فعلوا كانوا كأنهم لا عقول لهم ولا قلوب حيث لم ينتفعوا بها، فحق عليهم قول ربنا ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلَا نَعْمَ بَلْ هُمْ أَصْلُ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179].

عبر بالفعل؛
لتنزيلهم منزلة
من لا يعي ما
يفعل

بلادة الكناية في ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وفيه أن القول بدلالة الجملة على الاغترار بطريق الكناية، هو وجه فيها ذكره أبو حيان بقوله: وقيل: ﴿فَعَلَ﴾ هنا كناية عن اغترارهم، كأنه قيل: مثل اغترارهم باستبطاء العذاب، اغتر الذين من قبلهم⁽²⁾.

احتمال وجود
الكناية في
الجملة عن
الاغترار

(1) الراغب، المفردات: (عمل - فعل).

(2) أبو حيان، البحر المحیط: 527 / 6.

نكتة التعبير بالموصل ﴿الَّذِينَ﴾:

عبر بالموصل
استحضاراً
لحالهم،
وتسجيلاً لقبيح
أفعالهم

آثر التعبير بالاسم الموصل استحضاراً لهم وللتسجيل عليهم بما تضمنته جملة التشبيه قبله من النص على فعلهم الذميمة، الذي يشتركون فيه مع المخاطبين ويتشابهون معهم فيه، وهو الشرك والتكذيب، وما يحتفُّ بهما من أعمال المكذبين الجاحدين.

إيثار شبه الجملة ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ دون ﴿قَبْلَهُمْ﴾:

من يفعل فعل
السابقين يكن
مثلهم

﴿مِنْ﴾ في الأصل للابتداء، فهي تشير إلى أول الموصوفين بالقبلية، فذكرها استرواح لأصل معناها مع معنى التأكيد الغالب عليها إذا وقعت مع قبل وبعد⁽¹⁾، فذكر ﴿مِنْ﴾ يفيد الابتداء والاستيعاب مع التأكيد، فهو يفيد الابتداء من قبل زمن المضاف إليه مباشرة من غير فاصل، مستغرقا جميع الوقت الذي قبل، وتستوعب بذكر طرفيه ابتداء وانتهاء، فتفيد أن ما قبلها عريق في القدم، وتفيد التأكيد، أي: تأكيد أن الذين كانوا من قبلهم، فعلوا مثل فعلهم، فهم على دربهم ماضون، والمراد من شابهوهم منهم، وليس جميع من كانوا قبلهم؛ لأنه يوجد ممن كانوا قبلهم مؤمنون.

دلالة الواو في سياق الآية الكريمة:

الواو عاطفة على
جملة محذوفة،
ولذلك أثره في
المعنى

الواو في ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ عاطفة، عطفت جملة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ على جملة محذوفة دل عليها السياق، والتقدير: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم الهلاك المعجل ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ﴾ بذلك، فإنه أنزل بهم ما استحقوه بكفرهم، فقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ دال على الجملة المحذوفة المتضمنة لإهلاكهم⁽²⁾.

بلاغة النفي ؛ (ما) في السياق:

استعملت جملة النفي هنا أداة النفي (ما)، وهي من أكد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 327 / 1.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 203 / 20، والطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 191 / 2.

وأوسع وأبلغ أدوات النَّفي؛ إذ تنفي الحال والاستقبال؛ لكنَّها هنا للنَّفي المطلق بدلالة دخولها على الماضي على ما سيأتي في الفقرة الآتية، فهي دالَّة هنا على نفي وقوع الظلم للناس لا في الحال ولا في الاستقبال، وقبل ذلك في الماضي؛ لأنَّ مَنْ يظلم هو مَنْ يحتاج إلى الظلم لينفعه، وهذا على الله تعالى محال.

سرُّ التعبير عن فعل الظلم النَّفي بالماضي:

دلَّ التعبير بالماضي في نفي الظلم عنهم في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ على تحقُّق نفي وقوعه أبدًا، فالله تعالى العدل، وأنه ليس فقط هو لا يظلم، بل إنه لا يريده أصلًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: 108).

نكتة إظهار لفظ الجلالة:

عبَّر بالاسم الجليل الذي تهتز القلوب لذكره؛ للدلالة على أنه سبحانه لا يحتاج إلى الظلم ليظلم، فهو ﴿اللَّهُ﴾ الذي دانت له السماوات والأرض وما فيهما، أفيحتاج لأن يظلم الناس، ولماذا؟

دلالة الواو في السياق الحكيم:

الواو في قوله: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ للعطف، عطفت جملة ﴿وَلَكِنْ كَانُوا﴾ على جملة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾⁽¹⁾، ليجمع بين جملة النَّفي المبيِّنة لعدل الله، وسبب هلاكهم بظلمهم أنفسهم.

توجيه الاستدراك بـ ﴿وَلَكِنْ﴾:

أكد الله تعالى عليهم أنَّهم هم الظَّالمون لأنفسهم، وذلك بالاستدراك في قوله: ﴿وَلَكِنْ﴾؛ إذ معنى الاستدراك عن نفي ظلم الله تعالى لهم؛ بيان أنَّ ظلمهم لأنفسهم كان منهم لا من الله ﷻ⁽²⁾.

مَنْ يظلم هو
مَنْ يحتاج إلى
الظلم، والله
غني عنه

الله هو العدل،
والعدل لا
يظلم، ولا يرضى
بالظلم أصلًا

إظهار الاسم
الجليل يزرع
المهابة في القلوب

مَنْ يهلك بظلمٍ
مِنْ نفسه، لا
من الله العدل

تأكيد نفي ظلم
الله لهم،
وإثبات ظلمهم
لأنفسهم

(1) الخراط، اللجتي من مشكل إعراب القرآن: 2/ 577.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/ 240.

سرّ التعبير بفعل الكون الماضي المجموع:

سرّ التعبير بفعل الكون الماضي المجموع ﴿كَانُوا﴾، تأكيد كونهم هم مَنْ ظلموا أنفسهم، وبيان أَنَّهُمْ مستمرّون على ذلك، في ماضيهم وحاضرهم، حتّى صار ذلك فيهم جبلة وطبعاً⁽¹⁾.

علة تقديم المفعول ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾:

في تقديم قوله: ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ على الفعل ﴿يَظْلِمُونَ﴾ دلالة على القصر والاختصاص، فهم وحدهم من ظلموا أنفسهم، واللّه تعالى لم يظلمهم شيئاً، كما يدل على أَنَّهُم بهذا الجحود يظلمون أنفسهم غاية الظلم، ولا يتجاوزهم ذلك إلى غيرهم، وأي ظلم للنفس أبلغ من الكفر، وحرمانها من نعمة الإيمان، كما أن فيه من الدلالات إضافة إلى ما ذُكر (رعاية الفواصل)⁽²⁾.

سرّ التعبير عن ظلمهم بالمضارع المجموع:

في التعبير بالمضارع في قوله: ﴿كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، بيان لكونهم لم يظلموا أنفسهم مرة ولا مرات قليلة، بل كانوا مداومين على ظلمها مكررين له، حتّى باغتهم عقاب الله وهم في ظلمهم غارقون؛ حتّى لكانهم كانوا - بسبب إهمال الله لهم - في مأمن من وقوع أي عقاب عليهم.

فنّ ردّ العجز على الصّدر:

في جملة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ نوعٌ من أنواع البديع ألا وهو فنّ ردّ العجز على الصّدر، ويسمّى بـفنّ (التّصدير)؛ إذ وافقت كلمة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وهي آخر كلمة في الجملة كلمة ﴿ظَلَمَهُمُ﴾ المنفية في صدرها، وهو في نظم الآية ركيزة من ركائز بناء المعنى: نفياً، وإثباتاً، قطعاً، وديمومة، ليرسّخ قطعية نفي الظلم عن الله تعالى، وإثبات ديمومتها بفعلهم أنفسهم.

دأبوا على
ظلمهم
لأنفسهم، حتّى
صار فيهم طبعاً
وعادة

لا ظلم للنفس
أعظم من
الكفر، وحرمانها
الإيمان

اغترّوا بإهمال
الله تعالى لهم،
فأداموا ظلمهم

رسّخ التّصدير
قطعية نفي
الظلم عن الله
تعالى، وإثبات
ديمومتها
بفعلهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/ 240، 4170/ 8، والبقاعي، نظم الدّر: 11/ 150.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4170، والطّعنّي، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 191.

بديع فنّ الإرصاء، في ثنايا الآية الكريمة:

قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وفيه من ألوان البديع فنّ الإرصاء، ويقال له: التسهيم⁽¹⁾، وذلك لأنه وجد قبل عجز الآية ما يدل عليه وهو قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ فإن القارئ إذا ما بلغ بعده ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ علم أنّ الفاصلة ﴿يَظْلِمُونَ﴾، وهذه درجة في التمكن والائتلاف في الفواصل، لا تُرى بهذه الدقة إلا في الكتاب العزيز، كما في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [الؤمنون: 14] فإنّ قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [الؤمنون: 14] يدلّ على ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [14]، ولذا نطق به عمر رضي الله عنه قبل أن يعرف أنّه الخاتمة المنزلة⁽²⁾، ليسهم هذا الفنّ في بيان فاعليّة القارئ المتدبّر، في استنباط المعنى القرآنيّ المصاغ وفق نسج محكم يأتلف أوّله مع آخره.

بلاغة الاعتراض في جملة الفاصلة:

جملة الفاصلة: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ اعتراضية لا محلّ لها من الإعراب وتفصيل ذلك أنّ هذه الجملة معترضة بين جملة: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وجملة: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ في مستهلّ الآية القادمة "وجه هذا الاعتراض أنّ التّعريض إلى ما فعله الذين من قبلهم يشير إلى ما كان من عاقبتهم وهو استئصالهم، فعقب بقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: فيما أصابهم، ولما كان هذا الاعتراض مشتملاً على أنهم ظلموا أنفسهم صار تفرّيع ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾

الذكر الحكيم
نسج محكم،
يأتلف أوّله مع
آخره، ويفقهه
من يتدبّره

في تغيير
الأسلوب،
تشويق إلى
الخبر، وتهويل
له، وترقب

(1) هو أن يكون في الآية قبل عجزها ما يدل عليه إذا عرف الرّويّ - وهو الحرف الأخير من الآية - ومن علماء البلاغة من يسميه: (التسهيم) وهو مأخوذ من الثوب المسهم الذي يدل أحد سهامه على الآخر الذي قبله، لكون لونه يقتضي أن يليه لون مخصوص به لمجاورة اللون الذي قبله. يُنظر: الخطيب، مفاتيح التفسير: 1/ 102.

(2) الخطيب، مفاتيح التفسير: 1/ 19.

عليه أو على ما قبله، وهو أسلوب من نظم الكلام عزيز، وتقدير أصله: (كذلك فعل الذين من قبلهم وظلموا أنفسهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله)، ففي تغيير الأسلوب المتعارف تشويق إلى الخبر، وتهويل له بأنه ظلم أنفسهم، وأن الله لم يظلمهم، فيترقب السامع خبراً مفضلاً وهو ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾⁽¹⁾.

❁ الفُروقُ المُعْجِيةُ:

(فعل) و(عمل) و(صنع):

الفعل أعم من
كل من العمل
والصنع،
والصنع أخص
منهما

العمل: هو ما يكون عن قصد وإدراك، بخلاف الفعل، فقد يكون بغير قصد، ولذلك فإن ما يُنسب إلى الحيوانات هو فعل وليس عملاً⁽²⁾، والفعل: يُطلق على ما يمرُّ سريعاً وينقضي ولا يكون له أثر، أما العمل فيقال لما يكون له أثر⁽³⁾ ومن العمل الفعل باليد من زراعة وتلقيح وسقي⁽⁴⁾؛ لأن ما يعملُه الإنسان بكَدِّ يده له أثناء عمله على العامل، ويبقى أثره، وقد لوحظ في استعمال القرآن الكريم أنه إذا كان المقام مقام تعبير عن ممارسة دنيء الأخلاق فإنه يُؤثر التعبير بلفظ الفعل، كما هو الشأن في آية هود ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: 87] والفعلية المرادة هي بخس الناس أشياءهم والنقص في الكيل والميزان، وهي من أخطأ الخصال، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيْشَةً﴾ [الأعراف: 28]، وبهذا المعيار، فإننا إذا نظرنا إلى التطفيف في الكيل والميزان وما يشابهه من التعامل بالربا، فإنه لا كَدَّ فيه ولا تعب، بل ينقضي بلا أثر من تعب ونحوه، وكذلك النظر إلى من يفعلون الفاحشة فإنها تنقضي سريعاً؛ كنشوة عابرة دون أن يكد لها بتحمّل مسؤولية ولا غيرها؛ وأما الصُّنْعُ: فهو إجادَةُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14 / 146.

(2) الرّاغِب، المفردات: (عمل - فعل).

(3) أبو حيان التوحيدي، للقياسات، ص 280، والرّاغِب، للمفردات: (عمل).

(4) جبل، اللّعمج الاشتقاقي للؤصل: (عمل).

الفعل، فكلُّ صُنِعَ فِعْلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنِعًا، والصَّنْع كما هو أخص من الفعل هو كذلك أخص من العمل⁽¹⁾، ولا يُنسب إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسب إليها الفعل، فهو يُنسب إلى الله تعالى كما في قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88] وإلى البشر كما في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُكُ﴾ [هود: 38]⁽²⁾، ويفترق الصنع عن الفعل في كونه مقيدًا بالقصد كالعمل، إلا أنه أخص منه - أي من العمل - من جهة كونه مقيدًا بالعمل أو الفعل المتقن، وبذلك يظهر أن الفعل هو أعم منهما، وأراد بالتعبير بالفعل في الآية دون الفعلين الآخرين، تنزيلهم منزلة من لا يعي، ولا يعقل ما يفعل، فكان كالحيوان الذي يأتي الأفعال وهو يعيها، أو يعقلها.

(1) الزاغب، المفردات: (فعل).

(2) الزاغب، المفردات: (صنع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 4-23-768-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26: المجلد السادس والعشرون، سورة النَّحْل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 4-23-768-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»